Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Araştırmaları Merkezi

ابن خلدون

«منتخبات»

مطابق لبرنامج شعبة الفلسفة
من المدارس التجهيزية

جميل صليبا كامل عياد

١٩٣٣

مطبعة ابن زيدون * دمشق

ابن خلدون

حياته ، فلسفته ، نظرياته التاريخية والاجتماعية

١ — توطئة عامة

ابن خلدون في مقدمة العلماء الذين وضعوا أسس البحث في الحياة التاريخية والاجتماعية كعلم خاص مستقل. ولايمكن أن نقايس بين موضوع « مقدمته » وبين المباحث الاجتماعية — الأخلاقية التي نقلت عن فلاسفة اليونان القدماء لأن « المقدمة » جعلت من العمران البشري علماً جديداً قائماً بذاته يعالج أكثر المسائل التي ندرسها اليوم في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ (راجع قيمة ابن خلدون في تاريخ التطور العلمي كتاب روبرت فلنت) :[1]

فمقارنة ابن خلدون بمؤسسي فلسفة التاريخ في الغرب مثل (ماكيافللي) و (بودين) Bodin وفيكو صاحب

(1) Robert Flint «History of philosophy of history». Edinburgh 1893 . p 157

« العلم الجديد » « Scienza nuova » أقرب إلى الحقيقة، لأنه يتصل في كثير من النقاط بأقطاب علم الاجتماع الحديث كونتسكيو وقوندورسي وفركزن وهردر وكونت وماركس . فكان يسعى مثل هؤلاء المفكرين المتأخرين لشرح التطور التاريخي العام وتعليل الظواهر والحوادث الاجتماعية وكشف العوامل المؤثرة في حياة الشعوب ومعرفة القوانين السائدة فيها بطريقة استقرائية تعليلية .

ولا شكّ في أن ابن خلدون قد سبق الجميع إلى هذه الطريقة العلمية في مباحثه التاريخية والاجتماعية رغم أنه لم يستطع تطبيقها تماماً فظهر الخطأ والضعف في كثير من نظرياته التي يميل فيها إلى التعميم السريع .

٢ — ترجمة حياته

ينتسب ابن خلدون إلى أسرة عربية معروفة انتقلت في القرن التاسع للميلاد من حضرموت الى الأندلس

ثم بعد أن لعبت دوراً سياسياً هاماً في اشبيلية اضطرت في منتصف القرن الثالث عشر ، على أثر سقوط سلالة الموحدين وتغلب الافرنجة ، للهجرة مع كثير غيرها من الأسر العربية إلى تونس ، حيث ولد ابن خلدون في ٢٧ مايس سنة ١٣٣٢ ميلادية .

دَرَس ابن خلدون العلوم العربية على والده وعلى مشاهير علماء تونس في عصره ثم انتقل ، وهو في مقتبل العمر ، إلى فاس لإتمام الدراسة على علمائها في التاريخ والحديث وعلم الكلام .

ثم انه دخل في خدمة سلطان تونس يقوم بالكتابة في ديوان الرسائل واتصل في فاس أيضاً بسلطان مراكش الذي عهد اليه بأمر الإنشاء عنده . وهناك اندمج ابن خلدون بطبيعة الحال في المشاحنات والدسائس السياسية السائدة فقام بخدمة أكثر أمراء افريقيا الشمالية ونكب مراراً بالسجن .

وفي أثناء إقامته بغرناطة عهد إليه سلطانها بمفاوضات

الصلح مع (بترو) الظالم ملك اشبيلية الذي طلب منه البقاء في معيته وعرض عليه إرجاع أملاك أسرته إليه ولكن ابن خلدون رفض ذلك .

وقد انتهز ابن خلدون فرصة وجوده في غرناطة للاتصال بعلمائها أمثال الوزير لسان الدين ابن الخطيب الذي توثقت أواصر صداقته معه ، كما قام بدراسة أحوال الأندلس العمرانية وتدقيقها عن كثب للمقايسة بينها وبين البلاد الاسلامية الأخرى .

على أن إقامته في غرناطة أيضاً لم تطل كثيراً بل انتقل من جديد الى افريقية الشمالية يتقلب في المناصب السياسية الكبيرة ويتلقى الصدمات الشديدة بسبب الفوضى السائدة في الحالة السياسية .

وكان في هذه المدة كلها لا يهمل ، رغم كل المشاغل ، دراساته العلمية ، وكلما وجد مجالاً للانسحاب من السياسة انقطع الى المطالعة والبحث .

وهكذا ظل زمناً طويلاً لا يستقر على حال يتجاذبه

حب السلطة من جهة والرغبة في العلم من جهة أخرى إلى أن تغلب عليه نهائياً الميل الى البحث والتأليف فانزوى في قصر (ابن سلامة) عند قبيلة ابن عريف في تونس حيث قضى أربع سنوات في تأليف مقدمته المشهورة .

إلا أنه لما صعب عليه في هذه البقعة الثانية المنقطعة عن العالم أن يعثر على المراجع اللازمة اضطر للانتقال الى تونس وانكب في مكتبة السلطان على تنقيح المقدمة وإتمام كتاب التاريخ العام الذي أسماه « ديوان العبر »

ثم عزم على السفر الى الحج ولكنه في طريقه لم يتجاوز مصر حيث بقي يلقي الدروس في الأزهر على جمع كبير من التلاميذ والمعجبين به ويقوم في نفس الوقت بوظيفة قاضي المذهب المالكي .

وفي هذا المنصب رافق سلطان مصر الى محاربة تيمورلنك في الشام وسكن دمشق مدة فكان من أعضاء الوفد الذي فاوض ملك التتر باسم سكان المدينة لعقد الصلح . وقد مات وله من العمر ٧٤ عاماً في القاهرة

في ١٥ آذار سنة ١٤٠٦

وقد ذاع صيت ابن خلدون في العالم كله ونالت (مقدمته) الاعجاب التام حتى اصبحت تعتبر كنزاً ثمينا للباحثين في علم العمران والمواضيع التي تتصل به من تاريخية واجتماعية واقتصادية وسياسية ·

٢ ــ فلسفة ابن خلدون

لم يتكلم ابن خلدون في مقدمته عن الفلسفة العامة مباشرة بل انتهى في مباحثه التاريخية الى ايضاح العمران البشري وما يعرض له من احوال فاضطر الى الكلام عن تفسير النبوءة والرؤيا وعلم الكلام والتصوف فانتقد العقل البشري وبين حدوده ثم قابل بين العلم والدين وارتقى الى فلسفة وضعية تذكرنا باوغوست كونت وسبنسر لأنها فلسفة تطور تقيد العقل بالمشاهدة المحسوسة والحوادث المتشخصة ·

ا ــ نظرية المعرفة

قلنا ان مذهب ابن خلدون وضعي لأنه يؤسس العلم على المشاهدة المحسوسة والفكر وينكر علم مابعد الطبيعة لأنه لايتصل بالتجربة المتشخصة وكل مالا يشهد له الحس الظاهري او الباطني لايمكن البرهان عليه · ولم يتوصل ابن خلدون الى انكار فلسفة مابعد الطبيعة الا بعدان أنتقد نطاق العقل البشري وطريقته في اكتساب العلوم فقال ان التوجه نحو التعقل يكون بقوة الفكر وهي القوة التي تنشأ العلوم عنها فتجرد المعاني الكلية من الجزئيات المحسوسة وتركيبها على قوانين محصورة وترتيب خاص ·

واذا انعمنا النظر في خالص رأيه وجدناه تارة يتقرب من ارسطو واخرى من افلاطون لان النفس الانسانية متصلة في زعمه ، من الجهة السفلى ، بالمدركات الجسمانية فتكتسب منها المعرفة ومن الجهة العليا متصلة